كتب

في كتابها الصادرة ترجمته عن «المركز العربي» تؤرّخ الباحثة والأكاديمية الألمانية لنضال الشعب الفلسطيني منذ النكبة، بلغة واقعية مُفارقة لما يصدر عن العالَم الناطق بالألمانية من انحياز لكيان الاحتلال، وبإثبات لوضعيّته كاستعمار استيطاني على أرض محتلّة

تأريخٌ لنضال شعب منذ 1948

«فلسطين» هلغى باومغارتن

أنس الأسعد

تلفت لُغة الباحثة الألمانية هِلغى باومغارتن (1947) ونبرتها القارئ العربي، فهي تُغرّد خارج مألوف ما يصدر عن العالَم الناطق بالألمانية حيال نضال الشعب الفلسطيني. تتحدّث المُحاضِرة التي عملت لأكثر من ربع قرن أستاذة للعلوم السياسية في «جامعة بيرزيت»، في كتابها «لا سلام لفلسطين: الحرب الطويلة ضدّ غزّة»، الصادرة ترجمتُه في كانون الأول/ ديسمبر 2023، عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» بتوقيع محمد أبو زيد، عن «طمس منهجي» تقوم به ألمانيا والنمسا للسردية الحقيقية التي تجرى على أرض فلسطين؛ وعن تبجّح دائم بمحاربة «عِداء الساميّة» في الوقت الذي يتمّ فيه «تطوير شكل من أشكال العنصرية المتمثّلة برُهاب الإسلام»، تكتب: «كألمانية أقف مذهولة أمام هذا الهجوم المُتكرّر والمُخجِل لكلّ ألماني ذي ضمير على الفلسطينيّين». غاية الكتاب الذي صدر أولاً بالألمانية بُعيدَ انتفاضة 2021، وأهدته المؤلّفة «إلى أطفال غزّة: من بيت حانون إلى رفح»، هي الوقوف عند أحداث تلك الهبّة الشعبية التي عمّت فلسطين بدءاً من حيّ الشيخ جرّاح واشتباكات باب العمود في القدس، والداخل المحتلّ عام 1948، والعدوان الإسرائيلي الموازي لهذه الأحداث على غزّة، إذ شهدت فلسطين «توحيداً تاريخياً» في ذلك العام. لكن للدخول إلى عوالم هذه الانتفاضة تستدعي الباحثة «عملية تنوير من خلال جذب الانتباه إلى الحقائق الماثلة في فلسطين التاريخية»، يكون في مركزها البحثي النظرُ بـ«عمليات التطهير العِرقي والاستعمار الاستيطاني» منذ عام 1948.

«استعراض تاريخي (1948 - 1967)» عنوان الفصل الأول من الكتاب، حيث تُبيّن الباحثة «أنّ المعنى المركزي للنكبة في القاموس الفلسطيني في تهجيرهم وتحويلهم إلى لاجئين، واستمرّت عملية التهجير أكثر من سنة». كما تُقدّم نماذج لذكريات ذلك العام كما انطبعت في نفوس قيادات ومثقّفين فلسطينيّين مثل جورج حبش، وغسان كنفاني، وصلاح خلف (أبو إياد)، وإبراهيم أبو لغد، وإبراهيم اللدعة. ولفهم النكبة وتأويلها، فإننا لا نقف في السردية الصهيونية على إثبات تهجير أكثر من سبعمئة ألف فلسطيني، فـ«الفلسطينيون تركوا مُدنهم وقُراهم لأن القيادات العسكرية والسياسية العربية أمرتهم بذلك». وبالتالي «لم يعُد هناك مكان يستطيع المرء العود إليه»، حسب المؤرّخ الصهيوني بيني موريس، الذي تُفنّد باومغارتن مقولته هذه من خلال اشتغالات سلمان أبو ستّة («طريق العودة») وأدب غسان كنفاني بعمومه، وقسطنطين زريق («معنى النكبة»).

الاستعمار الاستيطاني والتطهير العرقي مفهومان تأسيسيّان في الكتاب؛ الأول كما حدّه المؤرّخ الفرنسي مكسيم رودنسون («إسرائيل: واقع استعماري؟»، 1966)، والثاني من خلال إيلان بابيه («التطهير العِرقي في فلسطين»، 2006). وكذلك نور مصالحة الذي اشتغل بعُمق على «الترانسفير» (التهجير القسري)، في كتابه «طرد الفلسطينيّين: مفهوم الترانسفير في الفكر والتخطيط الصهيونيّين 1882 - 1948». كما يُثبت الكتاب الاستخدام الأول لنَعْت «إسرائيل» بـ«دولة فصل عنصري»، وكان ذلك عام 1961، وبصيغة «مدح» وليس ذمّاً، على لسان رئيس وزراء جنوب أفريقيا هندريك فيرورد. عشرون عاماً أخريات بين نكسة 1967 وانتفاضة 1987، هي المدّة الزمنية التي يرصدها الفصل الثاني، تشتعل المقاومة في غزّة بعد احتلالها، وتشرع «إسرائيل» بإنشاء معسكرات اعتقال في صحراء سيناء، وتهجير منظّم لغزيّين صوب العريش (لم يُكشف عن هذه الوقائع إلّا بعد مرور 50 عاماً من وقوعها). على الضفّة المقابلة تبرز «معركة الكرامة» 21 آذار/ مارس 1968، التي أسسّت لصعود «فتح» بقيادة ياسر عرفات على الساحة العربية. ومن بعد ذلك التاريخ تشهد الساحة الفلسطينية محطّات عديدة؛ مثل «أيلول الأسود» (1970)، وانتقال المقاومة الفلسطينية إلى لبنان ومن ثم الخروج منه إلى تونس إثر اجتياح «إسرائيل» لبيروت عام 1982. بالمختصر تبدو سنوات عقديْ السبعينيات والثمانينيات، كما تكتب باومغارتن، «سلسلة متصاعدة من الهجمات ضدّ الوجود السياسي والوطني، وحتى البدني للفلسطينيين في الشتات وفي المناطق المحتلّة على حدّ سواء».

لكن انتفاضة 1987 التي يتناولها الفصل الثالث، إلى جانب الارتدادات السياسية لـ«اتفاقيات أوسلو» حتى بعد عشر سنوات من توقيعها عام 1993، هي ما ستعيد للقضية زخمها السياسي ومن بوابة غزّة التي اندلعت منها الشرارة الأولى للانتفاضة. كما أنها ستُصدّر لاعباً فلسطينياً جديداً: «حركة المقاومة الإسلامية» (حماس)، وقد تحوّلت على يد مؤسسها الشيخ أحمد ياسين إلى المعارضة الأهم ضدّ «منظّمة التحرير» بقيادة عرفات الذي حوّل الحركة الوطنية الفلسطينية، من خلال «اتفاقيات أوسلو» (1993) التي أقرّت «التعاون الأمني»، إلى «شرطي» في خدمة الاحتلال. تكتب باومغارتن مستعينة بآراء لإدوارد سعيد وجوزيف مسعد: «في كامب ديفيد الثاني، حاول عرفات الشروع في انقلاب إلى الخلف، بعد أن أدرك أنّ الدخول في مفاوضات أوسلو كان غلطته السياسية الكبرى التي تكاد تكون قد اتخذت بُعداً تاريخياً. إلّا أن الحرب الإسرائيلية على الفلسطينيّين منذ نهاية عام 2000 حالت دون ذلك وقادت إلى وفاته».

هذا التاريخ الذي تعرضه صاحبة «من التحرير إلى الدولة» (2006)، قد يكون معروفاً بإطاره العام لقارئ عربي، لكنّ أهميّته تكمن في صياغته الدقيقة التي تُظهر حيوية الشعب الفلسطيني السياسية؛ فضلاً عن كونه مكتوبا أصلاً بالألمانية وموجّها لجمهور غربي مؤطّر بأسانيد الاستشراق، وعُقدة ذنب من «الهولوكوست» حلّها على حساب شعب آخر وبمحرقة أُخرى. في هذا الفصل بالتحديد، نقع على خريطة أيديولوجية مُتشابكة، وتفسير لكيفية تحرُّك القوى السياسية، ضمن قرِاءة عقلانية وواقعية بعيداً عن أسطرة المُعطيات والوقائع، على مختلف نوايا الأسطرة إيجابية كانت أم سلبية. في الفصل الخامس «الانتخابات 2004 - 2006» تقرأ الباحثة الظرف السياسي خلال هذين العامين، الذي مهّد إلى «حرب إسرائيل الطويلة على غزّة 2006 - 2021»، عنوان الفصل السادس والأخير في الكتاب. تُحدّد باومغارتن هذه السلسلة من الحروب بأنها إبادة وحشيّة، و«من أجل ذلك طوّر العسكر الإسرائيلي ما يُسمَّى ‹عقيدة الضاحية› التي طُبّقت للمرّة الأولى في حرب لبنان 2006». ولا تفصل الباحثة بين الحرب والحصار «الذي يتحكّم منذ عام 2007 في كلّ وجه من أوجه حياة الناس اليومية في غزّة». كما أنها لا تقول «الحرب» من دون أن تُنبّه أنها ليست بين دولتين أو خصمين متساويين، فـ«الحروب ضدّ غزّة هي بالأحرى دائماً وأبداً معارك غير متكافئة تماماً بين قوّة إقليمية هي «إسرائيل»، التي تملك سلاحاً نووياً وسلاحاً جوّياً هو الأقوى والأفضل في المنطقة، ومزوَّدة بأحدث منظومات الأسلحة في العالم، وبين المنظّمات الفلسطينية في غزّة». لا شكّ في أنّ تنبيه الباحثة على مدى الوحشية يظلّ نسبياً لو قارنّاه بالحرب الأبشع والأطول التي تُتمُّ غداً شهرها الرابع. فعلى سبيل المثال/ نجدها تتحدّث عن «إجراء هانيبال» (قتل إسرائيل لأسراها)، والذي أرادت «إسرائيل» من خلاله الحؤول دون ممارسة ضغوط عليها عبر عمليات اختطاف لجنودها.

تأسيسٌ على مفهومي التطهير العرقي والاستعمار الاستيطاني

كشْفُ حيوية الشعب الفلسطيني السياسية بعيداً عن الأسطرة

هلغى باومغارتن (تصوير: ستيفان رول)

كلمات صريحة

بكلمات صريحة، تكتب الباحثة الألمانية هلغى باومغارتن بعد أيّام من بدء العدوان الإسرائيلي: «أين الدعوات إلى وقف فوري لإطلاق النار؟ أين الضغط الشديد على إسرائيل كي توقف هذا الجنون؟ أين الضغط على إسرائيل كي تضع أخيراً حدّاً لنظام الاحتلال والاستعمار الاستيطاني ونظام الفصل العنصري؟ أين الضغط على إسرائيل كي تضع حدّاً للحصار الشامل على غزة وتفتح الحدود المحيطة بها».

النص الكامل
على الموقع الإلكتروني

نظرة أولى

عن «مدارات للأبحاث والنشر»، صدرت طبعة جديدة من كتاب «**الجذور الاجتماعية للنكبة: فلسطين 1858 - 1948**» للباحث الفلسطيني الراحل أكرم حجازي. يعود الكتاب إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر لفهم أنماط الملكية والإنتاج وطبيعة العلاقة الاقتصادية بين الدولة والمجتمع في فلسطين خلال العهد العثماني ثمّ فترة الاستعمار البريطاني عقب الحرب العالمية الأولى، ودور الكولونيالية البريطانية في تجهيز البنية التحتية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأراضي الفلسطينية للصهيونية قبيل النكبة، وصولاً للاقتلاع والتهجير القسري عام 1948.

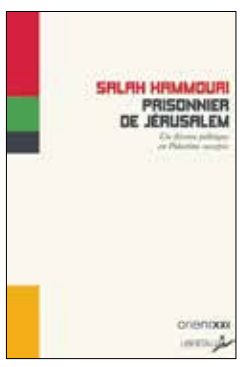

«**أسير القدس: معتقلٌ سياسي في فلسطين المحتلّة**» عنوان كتاب صادر عن منشورات «ليبرتاليا» الفرنسية. وفيه توثّق الكاتبة أرمال لابوري شهادة الحقوقي الفلسطيني الفرنسي صلاح حموري الذي أبعده الاحتلال إلى فرنسا في كانون الأوّل/ ديسمبر 2022، بعد أن قضى أكثر من عشر سنوات في السجون الإسرائيلية. تكمن أهمية هذه الشهادة في الوصف الدقيق لمنظومات الاعتقال الإسرائيلية، ومراكز التحقيق التي يديرها جهاز «الشاباك» وأساليب تعذيب الأسرى الفلسطينيّين، ورصدها، في المقابل، إستراتيجيات المقاومة لدى الحركة الأسيرة على مستوى التنظيم والتكوين الفكري.

عن «منشورات مرفأ»، صدر «**كتاب الوصايا: شهادات مُبدعات ومُبدعين من غزّة في مواجهة الموت**»، بتقديم ألبيرتو مانغويل وجوديث بتلر، وتحرير ريم غنايم. في هذا العمل، يُقدّم كتّاب وكاتبات من غزّة شهاداتهم في لحظات فارقة بين الحياة والموت. من مقدّمة المنظّرة النسوية الأميركية جوديث بتلر نقرأ: «ما هي الوصية الأخيرة؟ إنّها آخر ما تبقّى من رغبةٍ وأمل. ما هي الشهادة؟ إنها تمنحنا شذرات من حياة لا تزال على قيد الحياة، بينما تسبر غور مستقبل حياة لم تعُد على قيد الحياة. تسأل الوصية عمّا تبقّى من الرغبة في مواجهة الوحشية والدمار الشامل».

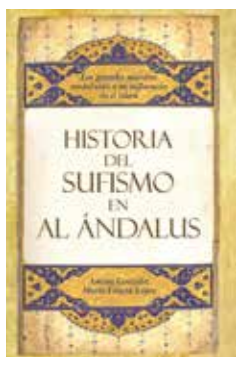

كانت الأندلس والمغرب العربي، خلال العصور الوسطى، مسرحاً لتبادل المعرفة الروحية من خلال المتصوّفين ومريدي الحركة الصوفية من الضفّتين. وتظلّ صوفية الغرب الإسلامي، بما لها من خصوصيات، تقليداً حيّاً، ويحتّل إنتاجها المكتوب مكانة بارزة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي. في كتاب «**تاريخ الصوفية في الأندلس**»، الصادر عن دار نشر «ألموزارا» الإسبانية، يحاول الباحثان الإسبانيان آمينا ماريا وغارسيا لوبيز رسم لوحة تاريخية لروّاد الصوفية الأندلسية المغاربية، ويعرضان وجهات نظر جديدة حول بعض المذاهب الصوفية وأبرز مؤسّسيها.

يرصد كتاب «**الثقافة الإسلامية الهندية**»، الصادر عن «مؤسّسة الفكر العربي»، بتأليف الباحث جعفر رضا وترجمة محمد ثناء الله الندوي، من منظور تاريخي نقدي، الثقافة الإسلامية في الهند في إطار مرجعيّاتها المختلفة والمتقاطعة، والتي تعزّزت بالإسهامات الإسلامية، بدءاً من العرب التجّار في ساحل الهند الجنوبي كيرالا، والفتح الإسلامي للسند عام 711م على يدَي محمّد بن القاسم الأموي، وصولاً إلى الحكومات الإسلامية، ثمّ ما بعد الاستقلال (1947)، وصولاً إلى اليوم. يبحث الكتاب في نتاجات هذه الثقافة والتأثير الإسلامي فيها.

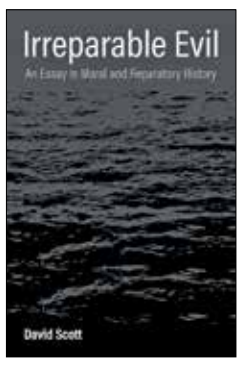

صدر عن «منشورات جامعة كولومبيا» كتاب «**شرٌ لا يمكن إصلاحه.. مقال في التاريخ الأخلاقي والتعويضي**» للباحث الأميركي ديفيد سكوت. يُعيد الكتاب النظر في قصّة عبودية العالم الجديد في سلسلة مقالات تُركّز على جامايكا ومنطقة البحر الكاريبي، مبيّناً أنّ العبودية لا تنطوي فقط على وحشية لا يمكن تصوّرها، بل تشمل أيضاً التدمير الذي لا رجعة فيه لأنماط الحياة والعوالم الثقافية التي تمّ اقتلاع المستعبَدين منها، وكيف شكّل الاستغلال الذي مارسه الأوروبيون الرأسمالية الحديثة، من خلال إثرائهم من جهة وإفقار الأطراف المستعمَرة من جهة أُخرى.

للباحث المصري أحمد عبد الحليم، صدر عن «جسور للترجمة والنشر» كتابٌ بعنوان «**الجسد في مصر من السياسة إلى الاستهلاك**». يسعى العمل إلى إيجاد سردية تحكي من أسفل عن السلطوية وأجساد المواطنين المصريّين، في إطار السياسة والفكر والثقافة والمجتمع والسجن، وذلك خلال أكثر من عشر سنوات مضت على انقلاب تمّوز/ يوليو 2013. العمل، أيضاً، محاولة لتسجيل أصوات من تفاعلوا مع هذه السلطوية، وكيف تعاملت هذه الأخيرة مع أجساد محكوميها عبر أدوات النفي والاستبعاد والمراقبة والإخضاع، بهدف خلق سردية بديلة تخالف ما هو رسمي ومفروض.

«**نزع الأقنعة عن محمّد عفيفي مطر: الرجل الذي خاف أن يخاف**» عنوان كتاب صدر عن «بيت الحكمة» للكاتب والصحافي شريف قنديل. بالاستناد إلى معرفته الشخصية بالشاعر المصري الراحل وآراء عددٍ من الكتّاب والنقّاد الذين كتبوا عنه، يَعرض المؤلّف لتجربة محمّد عفيفي مطر وأبرز العوامل التي أثّرت في شخصيته وانعكست على قصائده، في محاولة لفهم البُعدين النفسي والفلسفي في نصوصه. ويؤكّد قنديل أنّ عفيفي مطر كان شاعراً تنويرياً، مرتبطاً بالأرض والقرية، ومنخرطاً في هموم الناس وقضاياهم، وتستند ثقافتُه بشكل كبير إلى التراث العربي والإسلامي.